الفصل الأول

كلمة تاريخ وتطور استخدامات العرب لها

كلمة التاريخ فى اللغة العربية تعنى الاعلام بالوقت ، ويقال ارخت الكتاب وورخته توريخا اى حددت وقت كتابته [1] .

فكلمة توريخ تعنى ايضا التعريف بالوقت وهى لفظ عربى أصيل وقيل انها مأخوذة من أصل سريانى معناه الشهر .

وعن هذه الكلمة يقول الصولى تاريخ كل شيء غايته ووقته الذى ينتهى اليه زمنه [2] ، ويقول السخاوى انه التعريف بالوقت الذى تضبط فيه الأحوال من مولد الرواة ، والائمة ، ووفاة ، وصحة ، وعقل ، وبدن ورحلة ، وحج ، وحفظ ، وضبط ، وتوثيق ، وتجريح [3] .

أما عن نشأة كلمة التأريخ بالهمز ، والتاريخ بتسهيل الهمز فتختلف الروايات حولها وان كان الرأى السائد انها ليست عربية محضة [4] ،

---

(١) انظر . مجمع اللغة العربية : القاموس المحيط جـ ١ ص ١٣ ، وبطرس البستانى . محيط المحيط ، بيروت ١٩٨٣ ص ٧ ، وملا كاتب جلبى : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون جـ ١ ، استنبول ١٣١٠ هـ صفحة ٢١٢ .

(٢) أبو بكر الصولى : ادب الكتاب ـــ تحقيق محمد بهجة الأثرى ، القاهرة ١٣٤١ هـ ص ١٧٨ .

(٣) شمس الدين السخاوى : الاعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، بيروت ، دار الكاتب العربى ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ص ٧ .

(٤) من المعروف ان تحديد الوقت عند العرب قبل الاسلام كان يرتبط دائما بأمر مشهور يحدث لديهم فعرب الجاهلية كانوا لغلبة الأمية عليهم =

فالبعض يعتقد ان أصلها غربى والبعض الآخر يعتقد أن أصلها شرقى . ويستند أصحاب الرأى الأول على انها مأخوذة من كلمة ارخى Archéé اليونانية بمعنى بداية أو حكم ، وأرخايوس Archaios بمعنى قديم ويستندون فى ذلك الى أن التاريخ ما هو الا ذكر للاحداث من قديمها الى حديثها ، كما يرى بعض هؤلاء انها مأخوذة من كلمة هستوريا Historia الرومانية التى تعنى البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة ، ثم تدهور استعمال هذه الكلمة فى اللاتينية حتى استعادت قيمتها فى اللغات الحديثة .

أما عن الرأى الآخر الذى يرجح أن أصل هذه الكلمة شرقى فيستند بعضهم على أن كلمة التاريخ معربة من كلمة ماه روز (٥) الفارسية ومعناها حساب الشهور والأيام (٦) كما يستند بعضهم الآخر على أن أصول هذه الكلمة سامية وانها مشتقة من القمر أو الشهر بمعنى أنها تعنى التوقيت حسب القمر .

ولنا هنا أن نشير الى أنه كان لدى العرب قبل الاسلام أنماط متعددة من المعرفة التاريخية منها الأيام والأنساب والقصص ففى الأيام عرفت العرب نوعا من التاريخ الشفهى وخصوصا انهم كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك ، فقد كانت القبائل تروى فيها مآثرها والحروب التى خاضتها والانتصارات التى حققتها وقد اتخذت هذه الأيام فى أغلب الأحيان أسماء الشخصيات التى شاركت فيها ، أو أماكن الأحداث التى وقعت عليها أو السبب الذى دعا اليها أو غير ذلك ، واكثر ما تكون تسميه اليوم بالمكان كيوم الكلاب وهو موضع بين الكوفة والبصرة ، وغير ذلك .

يتذاكرون أيامهم واحداثهم عن طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار أو أخبار متفرقة ، وكانوا يبنون التاريخ على الليالى دون الأيام بخلاف العجم، كما كانوا يؤرخون بالأمور المشهورة التى كانت تحدث لديهم فأرخ العدنانيون بعام نزول اسماعيل مكة ، وكذلك أرخوا بعام النيل الذى ولد فيه بنى الاسلام محمد بن عبد الله .

(٥) ماه تعنى القمر ، وروز تعنى اليوم .

(٦) البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ٢٩ .

وبالنسبة للأنساب فقد كانت كل قبيلة تحتفظ بنسبها كما كان لكل قبيلة نسابتها .

أما عن القصص فقد كانت فى معظمها مليئة بالأساطير والخرافات التى تروى للأجيال عن بطولات مزيفة وأخبار مصطنعة .

وعلى كل حال فان هذه الانماط من المعرفة التاريخية لم يكن الهدف من تناقلها تكوين مادة تاريخية تربط ماضى العرب بحاضرهم بقدر ما كانت ترجع الى الروايات الأدبية التى تتسم بالمبالغة والتحيز لكى تتفاخر بها القبائل فى اثناء أسمارها للاستمتاع بها .

والجدير بالذكر ان كلمة تاريخ لم تذكر فى الأدب الجاهلى ولا فى القرآن الكريم ، ولا فى الأحاديث النبوية الشريفة وان كان من المسلم به أن القرآن الكريم قد عمق الاحساس التاريخى عند العرب حين أشار الى الأمم والقبائل والأنبياء السابقين ، وقص عليهم قصص الأمم الخالية بهدف اثارة العبرة فى نفوسهم كما أثبت أن للتاريخ معنى معينا على الانسان أن يتبعه دائما ، وهو أن الانسان هو الذى يصنع مصيره بنفسه خيرا كان أم شرا فان حسن عمله فى حياته ازدهرت حضارته ، وازدانت معيشته وان أفسد حق عليه العذاب والدمار . يقول تعالى « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (٧) .

وقال تعالى « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم والله عليم حكيم » (٨) .

وبعد ظهور الاسلام تطلبت الظروف الجديدة التى طرأت على المجتمع الاسلامى ظهور أنماط جديدة من المعرفة التاريخية وكان من أبرزها ظهور الوثائق السياسية فقد كان من أول أعمال الرسول صلى الله

---

(٧) آل عمران : الآية ١٣٧ .
(٨) النساء : الآية ٢٦ .

عليه وسلم كتابه الذى نظم به التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود [٩] . وقد كان بمثابة المعاهدة الأولى فى الاسلام ، ثم الرسالة التى أرسلها صلى الله عليه وسلم لعبيد الله بن جحش فى سريته المعروفة [١٠] ، وتوالت بعد ذلك المعاهدات والاحلاف بين الرسول والمشركين ، كما توالت الرسائل بينه وبين قواده ، وبينه وبين ملوك وحكام البلدان المجاورة أمثال ملوك فارس ، والروم ، ومصر والحبشة وغيرها .

وعلى الرغم من ذلك فان كلمة التاريخ عند العرب لم تستعمل الا فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب فبعد أن أرسل اليه أبو موسى الأشعرى يخبره بحيرته فى العمل بما يرد اليه من مراسلات بقوله « أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندرى على أيها نعمل . فقد قرأنا صكا محله شعبان ، فما ندرى أى الشعبانين أهو الماضى أم القابل ؟ » [١١] ونتيجة لذلك جمع عمر وجوه الصحابة رضى الله عنهم وقال « ان الأموال قد كثرت وما قسمناه غير مؤقت فكيف التوصل الى ما يضبط به ذلك ، فقال له الهرمزان [١٢] « ان للعجم حسابا يسمونه (ماه روز) » ثم شرح للصحابة كيفية استعمال ذلك فقال لهم عمر « ضعوا للناس تاريخا يتعاملون عليه وتصير أوقاتهم فيما يتعاطونه من المعاملات مضبوطة » فقال له بعض من حضر من مسلمى اليهود « أن لنا حسابا مثله مسندا الى الاسكندر » فما ارتضاه الآخرون لما فيه من الطول ، وقال قوم نكتب على تاريخ الفرس ، قيل ان تواريخهم غير مسندة الى مبدأ معين . بل كلما قام منهم ملك ابتدءوا

---

(٩) ابن هشام : السيرة النبوية — (أربعة أجزاء) تحقيق مصطفى السقا وآخرون ج ٢ ص ١٤٧ .

(١٠) نفسه ج ٢ ص ٢٥٢ .

(١١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ١، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرفية ، ١٣٢٢ هـ ص ٢ — ٣ .

(١٢) ملك الأهواز ، وقد أسر عند فتوح فارس ، وحمل الى عمر وأسلم على يديه .

التاريخ من لدن قيامه ، وطرحوا ما قبله [١٣] ، وتبادلوا الراى فيما يتخذونه بداية لتاريخ المسلمين فراى البعض ان يكون المبدا ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم ، وراى بعض آخر ان يكون سنة البعثة ، ثم استقر الراى على اختيار الهجرة وخاصة انها فرقت بين الحق والباطل ، هذا الى جانب ان وقتها لم يختلف فيه احد ، كما اختار المسلمون شهر المحرم بداية للسنة الهجرية لأنه منصرف الناس من حجهم . وهكذا كان المسلمون مستقلين فى اختيارهم عن غيرهم ، معتزين بهجرة نبيهم التى كانت منطلقة لبناء الدولة الاسلامية ، ونتيجة لذلك صار التقويم الهجرى عنصرا حيويا فى نشأة الفكرة التاريخية عند العرب .

وقد ظلت كلمة تاريخ عند العرب تعنى الحقبة او الزمن ثم اكتسبت بعد ذلك معنى البحث فى وقائع الزمان واحواله وفى ذلك يقول السخاوى عن التاريخ « أما موضوعه فالانسان والزمان ، ومسائله : احوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الاحوال العارضة الموجودة للانسان وفى الزمان » [١٥] .

ومع ذلك دار نقاش طويل حول مدلول هذه الكلمة فى اللغات العربية والاوربية ، ففى اللغة العربية يرى البعض أن كلمة تاريخ بالهمزة ادق من كلمة تاريخ (بالالف اللينة) ويرى البعض الآخر عكس ذلك ، ويبدو أن هذا اللبس ذاته موجود فى اللغات الأوربية فكلمة History الانجليزية ، وكلمة Histoire الفرنسية ، وكلمة Geschichte الالمانية تستعمل غالبا للمعنيين وان كان بعض العلماء قد حاول التمييز بينهما فاطلق بعض الفرنسيين مثلا Histoire (بـ H كبرى) على الماضى ، وكلمة Histoire على العلم ، واحتفظ الالمان بكلمة Geschichte للمعنى الأول وكلمة Histoire للمعنى الثانى .

---

(١٣) الجبرتى : المصدر السابق ج ١ ص ٢ — ٣ .

(١٤) عبد العزيز الدورى : بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ، دار المشرق ، ١٩٨٣ ص ١٩ .

(١٥) شمس الدين السخاوى : المصدر السابق ص ٧ .

أما فى العربية فاننا نتفق مع الرأى الذى يقول ان كلمة تاريخ يمكن أن تطلق على دراسة الماضى ، أما كلمة تاريخ فتطلق على الماضى ذاته [١٦] .

وعلى أى حال فان علم التاريخ عند المسلمين يرتبط بعلم الحديث الذى يعد أحد فروع المعرفة الرئيسية فى الدراسات الاسلامية اذ عنى المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن ، ويستنبطوا أحكام الدين فاعتمدوا على طريقة الجرح والتعديل فى الحديث للوصول الى الحقيقة وقد اكد السخاوى ذلك بقوله : « فعلم التاريخ من فنون الحديث النبوى . وقعه من الدين عظيم ، ونفعه متين فى الشرع » [١٧] ومعنى ذلك أن العناية بدراسة الحديث والكتابة فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قد شجعت على القيام بالدراسات التاريخية فكان الاهتمام باقوال الرسول وافعاله للاهتداء بها أو الاعتماد عليها فى التشريع وفى التنظيم الادارى ، وفى شئون الحياة ، مصدرا هاما للتشريع كما كانت مغازيه وغزوات أصحابه موضع اهتمام واعتزاز لدى المسلمين ومجالا للدراسات التاريخية [١٨] وقد انتهت الينا سيرة الرسول فى كتاب عبد الملك بن هشام الذى انتهت اليه السيرة التى كتبها ابن اسحاق الذى قسم السيرة الى ثلاثة أقسام قسم يتناول فترة ما قبل الاسلام وقد أطلق عليه ابن اسحاق المبتدأ ، والقسم الثانى ويتناول ميلاد الرسول ونشأته حتى البعثة ، أما القسم الثالث فيتناول حياة الرسول بعد البعثة الى وفاته [١٩] .

ولما توسعت الدراسة فى الحديث لتشمل أقوال الصحابة والتابعين توسعت الدراسات التاريخية على غرارها ، يضاف الى ذلك أن القضايا

---

(١٦) قسطنطين زريق : نحن والتاريخ ، بيروت ، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٤ ص ١٤ .

(١٧) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة مطبعة بولاق ، ١٨٩٦ ص ٢ .

(١٨) الدورى : المرجع السابق ص ١٩ — ٢٠ .

(١٩) للتفاصيل : انظر ابن اسحاق : المصدر السابق .

السياسية ، ونظم الحكم وخاصة مسألة الخلافة ، وتراجم الاعلام وطبقات الرجال تطلبت البحث فى النواحى التاريخية . ومن هنا ظهرت دراسات فى السيرة النبوية وفى المغازى [٢٠] وفى نسب قريش ، وفى الانظمة الادارية فى الأمة الاسلامية ، وفى التراجم لرجال الفقه والحديث والعلم وغيرهم . ونتيجة لذلك تحول الاخباريون والنسابون فى القرن الثانى الهجرى الى كتابة التاريخ فى صورة يوميات ، ثم حوليات ، ومن يقرأ هذا النوع من التدوين التاريخى فكأنه قد عايش الأحداث يوما بعد يوم ، وشهرا أو سنة فى اثر شهر أو سنة .

وتكفى مراجعة يسيرة لكتاب الفهرست لابن النديم وكتاب كشف الظنون لحاجى خليفة للالمام بذلك الرصيد الضخم من تراث العصر الذى اضاف اليه كل جيل رصيده .

وفى العصر العباسى الأول ازدهرت حركة جمع الشعر الجاهلى وتدوينه لحماية هذا التراث الذى ظل ينقل مشافهة من جيل الى جيل ، مما أدى الى تعرضه لآفات الرواية النقلية أحيانا ، والى ضياع بعضه فى غمار الزمن ، ومتاهة النسيان أحيانا أخرى [٢١] .

ومن المعروف ان التدوين التاريخى شىء والتأليف التاريخى شىء آخر مختلف تماما فالأول مجرد نقل الأحداث والأخبار ، والثانى هو عرض الأحداث وتبويبها وتحليلها فلا يقف المؤرخ عند نقل الحوادث وسردها بل يضم اليها رأيه ويصدر عليها حكمه ، أى ان التدوين يصلح أن يكون مادة لصناعة التاريخ فى حين أن التأليف التاريخى هو التاريخ الذى يقوم عن طريقه تفسير الأحداث وابراز طبيعتها .

---

(٢٠) للتفاصيل انظر . محمد الواقدى : مغازى الرسول وسراياه — نشر جماعة الكتب القديمة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

(٢١) بدأ الاهتمام بجمع هذا التراث لاستنقاذ تراث العربية من التيار الشعوبى الذى تفشت فيه العجمة واختلاط الألسن لتفاصيل ذلك ، انظر ، عائشة عبد الرحمن : تراثنا بين ماضى وحاضر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ ، ص ١٣ .

وقد اشترط علماء المسلمين فى صحة التدوين التاريخى ان يكون الراوى للحدث او الواقعة احد شهود العيان له فقرنوا صحة الخبر بالشهادة ، والشهادة لا تثبت الا عن رؤية او سماع ، وعلى هذا الأساس تكونت المعرفة التاريخية لدى المسلمين .

ونتيجة لأهمية التاريخ فى حياة الأمة الاسلامية عدد الكتاب المسلمون فوائد التاريخ . يقول ابن الاثير [٢٢] « ان فوائد التاريخ كثيرة ، ومنافعة الدنيوية والأخروية كثيرة » وقد عدد هذه الفوائد بقوله :

١ — ان الانسان لا يخفى انه يحب البقاء ، ويؤثر ان يكون فى زمرة الاحياء ، وانه لا يجد فرقا بين ما يراه ويسمعه وبين ما يقرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين « فاذا طالعها فكأنه عاصرهم واذا علمها فكأنه حاضرهم » .

٢ — ان الحكام اذا وقفوا على سيرة أهل الظلم والعدوان وراوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف عن سلف استقبحوها واعرضوا عنها ، واذا راوا سير الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، استحسنوا ذلك ، ورغبوا فيه ، وتحلو بمحاسن الأخلاق .

٣ — حصول الانسان على العديد من التجارب والمعرفة بالحوادث ، وما تصير اليه عواقبها « فيزداد بذلك عقلا ، ويصبح لان يقتدى به أهلا » .

٤ — ما يتجمل به الانسان فى المجالس والمحافل من ذكر شىء من معارفها ، ونقل طريفة من طرائفها فترى الأسماع مصيغة اليه ، والوجوه مقبلة عليه ، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره ، مستحسنة ما يذكره [٢٣] .

ويقول السخاوى « ان التاريخ جم الفوائد كثير النفع لذوى الهمم العالية والقرائح الصافية » .

---

(٢٢) انظر : الكامل فى التاريخ جـ ١ ، المجلد الاول ، بيروت ، دار صادر ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ٦ — ٧ .

(٢٣) نفسه .

ويذكر ابن خلدون : ان فن التاريخ فن غزير المذهب جم الفوائد ، شريف الغاية اذ هـو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم (٢٤) .

ويقول عنه أيضا انه « فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها، دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع ، وأسبابها عميق » (٢٥) .

ويقول صاحب « كشف الظنون » أن « علم التاريخ هـو معـرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم ، وأنسابهم ووفياتهم الى غير ذلك وموضوعه أحوال الأشخاص الماضين .. والغـرض منه الوقوف على الأحوال الماضية وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن » (٢٦) .

ويقول عنه المؤرخ المصرى « عبد الرحمن الجبرتى » « اعلم أن التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسـومهم وعاداتهـم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم . وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم. والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضـية من حيث هى ، وكيف كانت وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ، ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين ، ويستجلب خيار أفعالهم ، ويتجنب سوء أقوالهم ، ويزهد فى الفانى ويجتهد فى طلب الباقى » (٢٧) .

---

(٢٤) من المعروف ان ابن خلدون ذهب الى أن التاريخ فرع نوعى من المعرفة يهتم بكامل مجال الظواهـر الاجتماعية ويكشف المؤثرات المختلفة . والمزيد من التفاصيل حول ذلك الموضوع انظـر تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .

(٢٥) نفسه جـ ١ ، بيروت ص ٧ .

(٢٦) كاتب جلبى : المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٢ .

(٢٧) الجبرتى : المصدر السابق جـ ١ ص ٢ .

ويقول المؤرخ النجدى « عثمان بن بشر » ان « علم التاريخ علم شريف فيه موعظة واعتبار ، واطلاع على حوادث الدهر الدوار ، ومعرفة أحوال الماضين مما يوقظ الأذهان والأفكار ، ويقيس العاقل نفسه على ما مضى من أمثاله فى هذه الديار » (٢٨) .

ويقول المؤرخ اليمنى عبد الواسع الواسعى عن علم التاريخ أنه « علم جليل المقدار شهدت بفضله الآيات والأخبار ، واعتنى بنقله الأثبات والأخبار ، وانفقوا فى ذلك نفائس الأعمار ، يطلع به العاقل على ما مر من الأعصار ، فيزيده من الكياسة والاستبصار بما حدث للأمم الماضية من الحوادث التى فيها عظة واعتبار (٢٩) .

ويقول عنه صاحب « اتحاف أهل الزمان » انه « يكسب الناظر برهان التجريب ، ويشحذ فكر الأديب الأريب ليقيس على ماضى مواقع الانتقاد والرضى ويرى الأسباب وما تولد منها ، والحوادث وما نشأ عنها ، وأولاه لمانت الفضائل بموت أهلها وأدى ذلك الى جهلها (٣٠) .

ويقول عنه صاحب العقيق اليمانى (٣١) « ان علم التاريخ مما تدعو الحاجة اليه ، ويعرف به أهل كل عصر ، وعظماء كل زمان ، والعلماء والفصحاء فى كل أوان ، وبه تعرف الحوادث وأوقاتها ، والخلائق وصفاتها ، ويعرف المتأخر ما تقدم من قبيح وحسن فيختار لنفسه ما أراد واستحسن » .

وهكذا يتضح مدى تطور علم التاريخ عند العرب منذ أن كان قصة تروى ، وبطولات تذكر الى أن أصبح علما له قواعده وأصوله ، وله علماؤه الذين يعرفون فوائده ومحاسنه .

---

(٢٨) انظر . عنوان المجد فى تاريخ نجد ج ٢ ، الرياض ، مكتبة الرياض الحديثة ص ٢ .

(٢٩) انظر . تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادثه وتاريخ اليمن ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ ص ٣ — ٤ .

(٣٠) مجهول المؤلف : اتحاف الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ج ١ ، الطبعة الثانية ، الدار التونسية للنشر ١٩٧٦ ص ٢ .

(٣١) عبد الله الشقيرى .